It was only at a later date that the influence of Aristotelian logic became tangible in the works of the commentators and exegetes, in what became the «craft of grammar.» This ifluence became manifest in both the terminology and methodology (analogy and taxonomy) borrowed from the logic of Aristotle. However, the influence of Aristotelian logic did not affect the core of Arabic grammar which retained the continuity of its object. Rather, the need among the commentators and exegetes for logical explanation brought them to force analogy on the linguistic data, hence creating distortions in the understanding of the language.

The argument that Arabic grammar is a science borrowed from foreign sources is a fallacy based on a misinterpretation of its object, methodology and historical evolution.

(قواعد) النحو العربى و (صناعته)
بين الأصالة العربية ، وتأثير المنطق الأرسطي

* * *

١ – **بداية** : ليس يخفى على فطنة القارىء مأألمحنا إليه فى العنوان من إشارة إلى التفرقة بين (قواعد) النحو العربي في ناحية ، و (صناعة) هذا النحو في ناحية أخرى .

فأما (القواعد) فهي : الأسس الدائمة المستقرة ، والمبادىء العامة المجردة ، التي قام عليها النحو العربي منذ النشأة الأولى ، ولا نراها تتغير ولا مطْواعة للتغير فى هذه اللغة العربية ، وإنما تواجهنا في صلابة وعناد ، ساخرة من عديد المحاولات التي ذهبت في تاريخها تترى أدراج الرياح .

وأما (صناعة) النحو : فنعني بها تلك الإضافات الجاهدة الممتدة ولكنها لا تدور إلا في فلك تلك القواعد الأولى ، في تبصُّرٍ مقتصد حيناً وفي تعسُّفٍ

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

مُسرِف أحيانا . مما تضخمت به كتب المتأخرين من النحويين في (الشروح) على (المتون) ثم في (الحواشي) على (الشروح) ثم في (التذييلات) على (الحواشي) وهكذا ..

٢ – **والحق** : أن مثل هذه التفرقة لو أتيح لها أن تقوم مقامهَا المفروض لها منذ استهلال الدراسة والبحث في شعاب المعارف المتوارثة بعامة ، وفي (تطور) النحو العربي بخاصة ، لَتبيَّنَ أمام الباحثين في وضوح وجلاء : ما كان في المصادر الأولى من أصول ومبادىء ، كثيرا ما تختلف اختلافا كبيرا عما ركمته عليها الأجيال المتأخرة في معالجتها لتلك الأصول وتفسيراتها لهذه المبادىء ، خاضعة فى ذلك – من غير شك ولابد – لما طرأ على تعاقب الأجيال من مؤثرات لم تكن من قبل ، وما تسلَّل إلى فكرها المتجدد المتَمدّد من ثقافات شعوب أُخَر .

وإذن لَوَضَح – بجلاءٍ أيضا – سبيلُ إلى الحكم المنصف بالأصالة أو بانعدامها أو باختلاطها بالكثير أو بالقليل من التسلل الدخيل ، وإذن لجاء هذا الحكم سليمَ الاستناد مقبولَ الاستنتاج .

نقول هذا ونحن نشير إلى أعمال بعض الباحثين من المستشرقين أو مِمَّن يدينون بمنهجهم هوىً أو ثقافة ، إذ يسارعون إلى اتهام كل فرع من فروع المعارف العربية – وفى مقدمتها النحو العربي – بالاقتباس والنقل ، دون ارتباط بهذه التفرقة الفاصلة بين ما بدأت به تلك المعارف من (أصول وقواعد) وبين ماتراكم عليها بعد ذلك من (صناعة) .

٣ – ولئن كان من الحق الذى لا مراء فيه : ملكا للدراسات الاستشراقية من جهود مشكورة وتضحيات غير مكفورة في التنقيب عن كنوز تراثنا العربي والإسلامي عامة ، وفي البحث عن شتاته ، وفى تحقيق مخطوطاته ، ثم فى طبعه ونشره ، بل فى لفت أنظارنا نحن أصحاب هذا التراث إلى اليقاظ له والاهتمام به والنهوض إلى دراسته بأسلوب التحليل العلمي وما ينبغى له من تعمق البحث واستكشاف أصيله من دخيله ، والطواف حوله بما أثر فيه أو تأثر به ، إلى غير هذا وذاك من مجالات الدراسة والبحث .

لكن من الحق أيضا : أن بعض المستشرقين قد خانهم التوفيق في مرحلة التعليق وإصدار الأحكام ، إما لفقدان التفرقة المفروضة بين الأصول المصدرية والتراكمات الطارئة ، وإما لدوافع ومنازع يأباها حيادُ العلم وتُنكرها أمانة الحكم – وليس هذا مجال سردها – وإما لعذر قاهر من عجز قاصر عن سَبْر أغوار هذه اللغة أو استيعاب الفروع والشعاب التي لا يمكن إدراك بعض الحقائق إلاّ فى ضوئها ، إلى غير ذلك من الأسباب والمعاذير ..

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

وكان من ذلك : ما ذهب اليه بعض المستشرقين من نقل هذا النحو العربي عن مصادر أجنبية ، وعن المصدر اليوناني والمنطق الأرسطي بصفة خاصة ، أو إلى تأثر هذا النحو بشيء من تلك المصادر .

٤ – لكن الـدارس للنشأة التاريخية ، ثم للقواعد الموضوعية لهذا النحو العربي ، في حياد وعمق ، لابد أن يدرك بل يتحقق – بقدر ما يوغل في البحث وفي التذوق – أن لهذا النحو العربي نشأة عربية خالصة ومنهجا مستقلا خاصا ينبع بوضوح من ذلك المصدر الأصيل المباشر ، وهو تراث اللغة العربية ، وعلى رأس هذا التراث : القرآن الكريم الذى كان علماء اللغة العربية ، بكل فروعها مقتنعين في صدق المخلصين وحماس الشهداء أنهم يرصدون أعمارهم وجهودهم جهاداً في سبيل الله بخدمة اللغة التى آثرها الله بفضله للقرآن الكريم حين أنزل قرآنه بها .

وحسبك أن تتصور إمام الدراسات اللغوية العربية : الخليل بن أحمد ، فإذا بك تراه – فيما ذكره المؤرخون – إما حاجًّا إلى بيت الله الحرام عاما ، وإما غازيا مجاهدا في سبيل الله عاما آخر ، لتدرك أي دافع وأي هدف كانا يسيطران على أبحاثه ودراساته في اللغة .

بل حسبك أن تطالع مقدمات الكتب اللغوية ، فإذا هي منذ البداية وفور تعريفك بالعلم الذي تتجه إليه من علوم اللغة – تحرص كل الحرص على أن تذكر (فضل) هذا العلم بمكانِهِ في خدمة الإسلام وإسهامه في ثقافة المسلمين بل (بضرورته والحاجة إليه) ضرورة شرعية وحاجة دينية حتى لتصبح العناية بهذا العلم (تكليفا) من تكاليف الإسلام .

٥ – على أن الواضح في تاريخهم ثم في دراساتهم وقواعدهم ، أنهم قد سلكوا منهجا استقرائيا للواقع اللغوي ، فمضوا يرصدون ويتلقطون فى نهم شغوف كل ما يعثرون عليه– بعد القرآن – من نصوص عربية خالصة وفى مقدمتها الحديث الشريف الصحيح ، ثم ماورد عن العرب الأقحاح من قبل الإسلام وفي صدره الأول .

بل إن علماء اللغة العربية بعامة ، وعلماء النحو بخاصة ، لم يترددوا في أن يعلنوا تلك التفرقة الحاسمة بين ما يعتبرونه حجةً حاسمة وشاهداً سلفيا مقبول الشهادة بقواعدهم ، ومالا يعتبرونه إلَّا مجردَ (مثال) لتطبيق هذه القواعد دون الاحتجاج به من كلام العرب بعد أن سرت إليهم عاديات الاختلاط باللغات الأجنبية من البلاد المفتوحة هنالك .

٦ – ولئن كان من الحق – كما لا حظ ابنُ خلدون وغيره – أن جمهرة الأعلام البارزين فى النحو العربي كانوا من الأعاجم وعلى رأسهم العميد المشهور « سيبويه » إلا أننا كذلك لا ينبغى أن ننسى أن « سيبويه » لم يكن إلا تلميذاً للعبقري العربي

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

« الخليل بن أحمد » الذى كان بدوره تلميذا لعربي اخر وهو « عيسى بن عمر الثقفى » (المتوفي عام ١٤٩ هجرية)

هكذا نهض هؤلاء الرواد العرب المسلمون لتقعيد النحو العربى منذ البداية ملتزمين بمنهج استقرائي واقعي بحيث يبحث وينقب في أرجاء التراث العربي اللغوي وحده وعلى رأسه (القرآن الكريم) كما أسلفنا .

٧ – **فعيسى بن عمر الثقفي** (١٤٩ هجرية) – وهو أستاذ الخليل بن أحمد الذي أصبح بدوره أستاذاً لسيبويه كما ذكرنا منذ قريب – تكونت ثقافته الأساسية من قراءة القرآن الكريم ، ولم يتقدم لتقعيد اللغة بقواعد النحو إلا بعد تعمق وتلاوة وإجادة وترديد وتكرار لألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه وأصواته ، وحركاته وسكناته ، وكما كان ميلاد « علم الأصوات » **Phonetics** على أيدي هؤلاء القراء للقرآن الكريم ، فكذلك طفق عيسى بن عمر الثقفي القارىء للقرآن يقوم بدراسته الرائدة للنحو العربي ، ولكن كيف؟ بجمع التراث اللغوي في كتابين منسوبين إليه وان كانا للأسف لم يصلا فيما لم يصل إلينا من تراثنا المفقود ، وإذا به يختار لهذين الكتابين عنوانين يكشفان عن موضوعهما – وكما قيل : إن الكتاب يُقرأ من عنوانه – فأولهما (كتاب الجامع) وثانيهما (كتاب الإكمال أو المكمل) للجامع .

وإذا كان الإمام البخاري قد اختار عنوان (الجامع) لهذا الرصيد الضخم الذي جمعه من صحيح الحديث النبوي فأغلب الظن عندنا أن عيسى بن عمر الثقفي قد سبق البخاري إلى هذا العنوان لما جمعه ثم أكمله من رصيد التراث اللغوي .

٨ – **أما أبو عمر زبان بن العلاء المازني** ، (المتوفي ١٤٥ هـ) ، أو (١٥٩ هـ) فقد كان معاصرا للشيخ عيسى بن عمر الثقفي ومشاركا له في الثقافة القرآنية وفي المنهج الاستقرائي اللغوي ثم في الفقه والتصوف أيضا . وحسبك أنه كان وثيق الصلة بالحسن البصري إمام هذا الجيل في عصره بل حسبك أنه واحد **من أصحاب القراءات السبع** المشهورة في قراءة القرآن الكريم .

أما عن منهجه في دراسته اللغوية الرائدة ، فلقد كان – كما جرت الرواية عنه – دائب الرصد والتعقب والجمع للتراث العربي اللغوي من أشعار العرب القدامى بعامة ، والجاهليين بخاصة ، ثم يتناولها بالتحليل اللغوي الدقيق . وإن كانت أعماله المدونة في هذا المجال لم تصلنا أيضا .

٩ – ثم نرى بعد الشيخين القارئين : عيسى بن عمر الثقفي ، وأبى عمر زبان بن العلاء

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

المازني تلميذا نجيبا لثانى الشيخين . كما تتلمذ على واحد من أعلام الثقافة العربية وهو الأخفش الأكبر ، ذلك التلميذ النجيب الذي أصبح أستاذا من الرواد الأولين في النحو العربي هو : **يونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢ هـ)** .

وكذلك كان منهجه اللغوي يقوم على استقراء النوادر واللغة والأمثال ، وتناولها بالدراسة والرصد والتحليل .

١٠ – إلى أن يظهر العبقري العربي بحق : الخليل بن أحمد الفراهيدي . وكما اهتدت عبقريته الموسيقية المذهلة إلى أن يكشف عما ينتظم به الشعر العربي من أوزان موسيقية منضبطة ، واستطاع لأول مرة أن يتحكم في كافة الأنماط الموسيقية الشاملة لهذا الشتيت الهائل من مختلف القصائد وأن يحللها إلى أبسط عناصرها ثم يصبها في قواعد ويصوغ لها المصطلحات العديدة والدقيقة معا : مثل (الأسباب) و (الأوتاد) و(الفواصل) و(التفاعيل) ثم (البحور) ...الخ .

كل ذلك في دقة مذهلة وحصر شامل عجيب ، حتى أنشأ – لأول مرة أيضا – هذا العلم العربي البحت (علم العروض) ليشذ عن السنة المألوفة في نشأة العلوم وتطورها فإذا (علم العروض) ينشأ كاملا منذ البداية أو هو إلى الكمال أدنى وأقرب ، حتى لم يجد من جاء بعد الخليل ما يضيفه إلى ذلك العلم إلا القليل الذي لا يوزن مع عبقرية الخليل بميزان .

وكذلك ، كان المنهج اللغوي الاستقرائي للعبقري العربي الخليل بن أحمد ، فإذا هو يجمع تراث اللغة العربية باستقراء رائع في كتاب (العين فى اللغة) وعلى أساسه قام صرح النحو العربي من بعده .

١١ – وأخيرا : نقف عند أول أستاذ نحوي فارسي الأصل ، لكنه عربي الثقافة والنشأة منذ قدم إلى البصرة وهو غلام ، حيث تلقى بها ثقافته الأولى ، ثم انتقل إلى بغداد ، ومعروف أنه أكثر التلاميذ للخليل بن أحمد شهرة وهو « سيبويه » ومرة أخرى : نرى « سيبويه » أيضا في منهجه اللغوي النحوي مشغوفا بالاستقراء والجمع للتراث اللغوي العربي ، بل إنه لم يقنع بجمع مَا تناقله الرواة من قصائد الشعر العربي ، وإنما نراه يطوف ويسيح وراء الناطقين بلسان عربي خالص بل يتعقبهم في أعماق البوادي ...

وحسبنا أن نذكر هذا المثل المشهور في (باب الاسماء الخمسة) من أبواب النحو العربي ، إذ أضاف إليها سيبويه لفظ (هنوه وهناه وهنيه) في الرفع والنصب والجر ، لمجرد أنه سمعه بهذا التغير من فم عربي سليم بينما استنكرها نحاة آخرون كالفراء والزجاجي ، وإن كان الشراح يتنصرون لسيبويه بقولهم : « إن الحافظ حجة على من لم يحفظ »

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

وهكذا يتأكد التزام النحو العربي بالتراث اللغوي الواقعي مرة أخرى .

١٢ – على أن هذه النشأة الثقافية السلفية التقليدية النابعة من أعماق المصادر العربية العليا ، لم تقتصر على هؤلاء الأعلام من قادة (النحو العربي) بعامة ، وزعماء (المدرسة البصرية) بخاصة ، بعد أن بدأنا بهم عامدين ، ليس لمجرد أنهم أئمة هذا (النحو العربي) ورواده الأولون فحسب ، ولكن لنكشف ذلك الوهم الكبير الذي تخيل الالتزام التقليدي أو الجنوح المنطقي معياراً للتفرقة بين النحويين فى مدرستين مختلفتين منذ البداية ، (مدرسة البصرة) وراء من أسلفنا الإشارة إليهم من الأئمة الرواد ، وهذه المدرسة فيما صوره ذلك الوهم الكبير قد اختصت – على عكس ما رأينا – بالنزعة العقلية والمنهج النظري في دراسة النحو وتقعيده ، بينما عكفت المدرسة المناظرة لها وهى (مدرسة الكوفة) على اللغة الواقعية والمنهج الاستقرائي للتراث اللغوي الأصيل .

ولقد رأينا بوضوح : أن هؤلاء القادة الأولين للنحو العربي بعامة ، وللمدرسة البصرية بخاصة ، قد نبعت دراستهم واستنباطاتهم لقواعد النحو من أعماق الواقع اللغوي العربي في أعلى مستوياته ارتقاء وأعظمها صفاء ونقاء ، وعلى رأسها القرآن الكريم ثم صحاح الحديث النبوي الفصيح ، ثم تراث العرب الأولين في الجاهلية وصدر الإسلام .

وهكذا ، إن يكن هناك مجال للتفرقة بين مدرستي (البصرة) و (الكوفة) فإنما هو بين المتأخرين (في صناعة) النحو ، لا بَيْنَ الرواد الأولين .

١٣ – والآن ، نتقدم بالنظرة العابرة إلى وجوه (مدرسة الكوفة) وقادتها ، فلا نرى إلا صورة مكررة للزعماء الأولين لمدرسة البصرة ، ولا نُتابع إلا خطاً موازيا للخط البصري في عربية المصدر وأصالة البداية وثبات الالتزام .

١٤ – ولعل أول عَلم يحفظ التسجيل الباقي لنا صوره واصحه سه وعن أعماله على رأس (مدرسة الكوفة) هو الإمام : **على بن حمزة بن عبد الله الكسائي (المتوفى ١٨٩ هـ)** فلننظر : أية صورة هي ؟

إنه ليبدأ ثقافته على يد إمام (مدرسة البصرة) بل إمام الدراسات اللغوية العامة : الخليل بن أحمد بل إن أستاذه الخليل بن أحمد ، ليدفعه دفعا إلى تأسيس دراسته اللغوية على الأساس الواقعي الذي آمن أستاذه به ، فإذا هو يمضي إلى البادية فى دراسة ميدانية تستغرق من عمره بضع سنين يرصد ويحشد واقع اللغة من أفواه أصحابها الخلَّص ، بل إنه ليهرع إلى دراسة القرآن الكريم بقراءاته ولهجاته على يد حمزة الزيات ، حتى ليصبح الكسائي نفسه رأسا فى

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

ميدان الخبرة والاختصاص بقراءة القرآن الكريم وواحداً من القراء السبعة الكبار .

فانظر : ماذا تنتظر من عَطَاءِ الكسائي إلى (قواعد النحو) بعد ما أخذ من هذا المصدر القرآني الرفيع ، وبعدما ما استوعب من الواقع اللغوي الفصيح يعبُّه عبا ؟

لقد كان من إنتاجه : (رسالة في لحن العامة) واللحن مصطلح إسلامي عربي يطلقه قراء القرآن الكريم على كل خطأ في نطق ألفاظه على غير نصابه السليم .

فالكسائي حين ينهض لإرشاد العامة إلى اللغة السليمة إنما يتجه بعقله واهتمام نفسه – إلى حملهم على المنهج الواقعي الفصيح والالتزام بنصابه السليم في هذه اللغة .

ثم تدور معظم أعمال الكسائي حول القرآن الكريم مثل (كتاب المشتبه فى القرآن) ولا تزال شهرة الكسائي كواحد من السبعة الكبار في قراءات القرآن الكريم تزاحم شهرته كأستاذ من الأساتذة القادة لمدرسة الكوفة في قواعد النحو واللغة .

١٥ -- وكما نهل الكسائي من المصدر القرآني في ملازمته لقراءته حتى أصبح من القراء السبعة الكبار ، فكذلك فعل تلميذه أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله المشهور بالفَرَّاء .

لكن التلميذ (الفراء) أضاف الى ما تلقاه عن أستاذه مزيدا من التعمق في ألفاظ القرآن الكريم مستكشفا لتفسيره ، ولا شك أن تفسير المعاني لكل نص ممتاز بعامة ، وللنصوص القرآنية بخاصة ، يستحيل أن تتفتح أبوابه بغير تحليل الألفاظ والتراكيب تحليلا عميقا دقيقا .

وهكذا ذكروا عن (الفراء) أنه أول من جلس لتفسير القرآن الكريم في مسجد من مساجد بغداد ، كما جلس لالقاء دروس في اللغة والنحو من نتاج دراسته القرآنية هذه ، تلك الدروس التى نتصور منهجه فيها وفي أسلوبه السلفي التقليدي في تقعيد قواعد النحو واللغة من خلال أعماله الباقية وإن كانت قابعة فى شكل مخطوطات ، ومنها : (كتاب معاني القرآن) ثم (كتاب الفاخر في الأمثال) و (كتاب المقصور والممدود و (كتاب المذكر والمؤنث) وكلُّها تسجل مدى تشبث الفراء بالمصدر العربي النقي والتزامه بالمنهج الاستقرائي للواقع اللغوي الأصيل .

على أن بعض الباحثين يشير إلى كتاب مفقود للفراء تحت عنوان (كتاب

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

الحدود) واستعمال كلمة (الحدود) – كما ستذكر إن شاء الله قريبا – بمعنى (التعريفات) هو استعمال منطقي طارئ على العرف العربي في هذا المجال بغير شك .

فإن يكن هذا صحيحا ، فها هنا نجد أول التسلل المنطقي إلى (صناعة) النحو ، ولكن :

أ – بعدما استقرت قواعده وتكامل جوهره تماما في أصالة عربية خالصة .

ب – كما نلاحظ أن هذه البادرة قد ظهرت في المدرسة الكوفية ، وليست البصرية كما أسلفنا آنفاً .

١٦ – ولا نريد أن نسهب في متابعة الرصد للأعلام المتتابعين من أساتذة (مدرسة الكوفة) في التزامهم الحريص وشغفهم الملهوف بالمصدر العربي النقي واستقراء الواقع اللغوي الأصيل وهم يؤسسون (قواعد) النحو العربي ويقيمون صرح بنائه .. كما رأينا من نظرائهم قادة (المدرسة البصرية) ، إلى أن تسلّل التأثير المنطقي الأرسطي فلم يبلغ من جوهر (القواعد النحوية) شيئا وإنما انحصر انحصارا ظاهرا في ظاهر (الصناعة) النحوية ، كما سنفرغ لذلك إن شاء الله قريبا . وبقيت (القواعد) النحوية على أصالتها العربية خالصة تتلألأ .

١٧ – لكن هناك دليلا (اجتماعيا) حاسما يقطع بأصالة (القواعد) النحوية بمطابقتها للرصيد الواقعّي اللغوي العربي الأصيل .

ذلك أنه من بداهة المنطق وفرائض الظواهر الاجتماعية بعامة ، أنه لو نجحت عملية (النقل) لقواعد النحو العربي من مصدر أجنبي ، أو لو أن مصدرا أجنبيا – أيا كان – قد نجح بوسيلة – أيا كانت – في التأثير على (قواعد) النحو العربي حتي أملى عليها وفيها ما ليس أصيلا في لغتها نابعا من طبيعتها ، أفليس من المستحيل – منطقيا واجتماعيا – أن تخضع لهذه (القواعد النحوية) الحديثة المستوردة ، نصوصُ العرب الأولين بل الجاهليين ، من شعرهم ونثرهم ، وقد تم لها التسجيل والاستشهاد سلفا قبل أن يستورد النحويون هذه (القواعد النحوية) الأجنبية أو يتأثروا في وضعها بمؤثر أجنبي بأجيال وأجيال ؟

بل كيف تستجيب النصوص القرآنية التى أجمع عليها سائر المسلمين قبل أن تظهر (هذه القواعد) الأجنبية بعشرات السنين ؟

كيف يستساغ – بالبداهة – أن تستوعب هذه (القواعد) النحوية الأجنبية بالمصدر أو بالتأثر كل هذا الرصيد من التراث العربي الأصيل وقد تجمع هذا الرصيد واستقر قبل التفكير في قواعد النحو بزمان طويل ؟

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

وهكذا فإن الأصالة العربية لقواعد النحو العربي لا ترتكز – فقط – على النشأة التاريخية لرواد هذا العلم ، والمنهج الاستقرائي الواقعي الذي التزموه في استنباط (القواعد) النحوية من صميم الواقع اللغوي العربي ، وإنما تتأكد لنا هذه الأصالة العربية للقواعد النحوية كذلك بهذا التأكيد الواقعي الراسخ ، وهو تطبيق هذه القواعد بشمول واستطراد على ذلك التراث العربي القديم .

١٨ – وبعد فإن هناك شاهدا باقيا واقعيا شامخا يصرخ بالأصالة العربية (للقواعد) النحوية من خلال الدراسة الموضوعية في شمول وعمق لهذه القواعد ، فإذا بها تنفرد وتتميز بخصائص بارزة حاسمة يستحيل أن تنبع إلا من صميم المصدر العربي وحده ولا غير .

فالواضح بجلاء منذ النظرة الأولى إلى مقدمات المؤلفين في هذه القواعد النحوية العربية ، أنها تُعنى بتقسيم الكلام إلى : اسم وفعل وحرف ، ثم نرى بوضوح في التركيب النحوي للكلام : إطلاق الحرية لمن يستعمل هذه اللغة العربية بالتقديم والتأخير في أجزاء الجملة ، فله أن يضع الفاعل قبل الفعل ، فيسميه النحويون (مبتدأ) ، أو أن يضعه بعد الفعل ، دون أن يتغير المعنى من الإثبات إلى الاستفهام كما في اللغة الفرنسية مثلا ، وإنما يبقى المعنى كما هو ، بل إنهم ليطلقون عليه في هذه الحالة أنه (فاعل) بعكس الترتيب في اللغات الأوروبية تماما .

كذلك له أن يضع المفعول به موضعه بعد الفعل والفاعل أو أن يضعه بعد الفعل وقبل الفاعل أو أن يبدأ به قبل الفعل والفاعل جميعا ...

ولا تقتصر هذه الحرية فى التقديم والتأخير على الجمل القائمة على فعل ، وإنما تمتد إلى مواضع الأسماء المتعاقبة ، فتوضع الصفة قبل الموصوف وعندئذ يسميه النحويون (بَدَلا) ويمكن العكس فتسترد الصفة تسميتها ويسميها النحويون (صفة أو نعتا) وهكذا ..

كل ذلك مباح متاحٌ لمن يستعمل هذه اللغة أو يدرسها في وعي بالمعاني وإدراك للأهداف والمرامي ، فإذا بها حرية لم تسمح بها قواعد هذه اللغة لوجه الفوضى ولا بسبب الفقر البدائي فى التقعيد والتنسيق ، وإنما يتحكم فى هذا التقديم والتأخير كما يتحكم فى الإسهاب والإيجاز بلاغة هادفة إلى إصابة المعاني وإثارة العواطف ، مع توافق الموسيقى وجلاء البيان .

أليس ذلك – ومثله كثير في (قواعد النحو) العربي – مما يجعل من المستحيل على دارس هذه اللغة في عمق وصدق أن يستسيغ الزعم بنقل (القواعد النحوية) عن مصدر أجنبي أو بتأثرها بمصدر لا يمتُّ إلى هذه القواعد

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

في أصولها وفروعها بصلة ؟

١٩ – بيد أن كل ما أسلفناه بكافة ، لا يسمح للباحث المحايد أيضا أن ينكر حقيقة تاريخية ليس إلى إنكارها من سبيل ، وهي أن العقلية العربية في أوج شبابها المتوهج ونشاطها المشبوب ، قد رحبت بما تسلَّل إليها من ثقافات الشعوب المجاورة بعامة ، ومن الثقافة اليونانية بخاصة ، وفي مقدمتها أعمال (أرسطو) الذي ظهر في الكتابات العربية باسم (صاحب المنطق) .

٢٠ – لكننا هنا نقف ، ولابد أن نقف ، أمام سؤال ثائر وهو :
ما مدى هذا التأثير الأجنبي المتسلل على الفكر العربي في مجالاته المختلفة ؟
بل ، وبمزيد من الدقة : ما مدى هذا التأثير على الفكر العربي في كل مجال على حدة ؟

٢١ – ذلك أن التسلل – بل الغزو – الفكري ليس إلا مجرد ظاهرة من الظواهر الاجتماعية البحت ، تحكمها قوانين حتمية عامة كتلك التي تحكم التسلل والغزو بين سائر المتجاورات في مختلف ظواهر الطبيعة .

فكما أن التسلل بين المتجاورات الطبيعية تتحدد اتجاهاته بما يستقبله من مجالات متخلخلة أو فارغة ، ثم يتحدد مداه فى كل مجال بقدر ما يلقاه في هذا المجال من تخلخل أو فراغ .

تماما كما يحدث في المتجاورات الطبيعية فيما نسميه (بالتيارات) الهوائية أو المائية أو نحوها .. بين (كثافة) ثقيلة تغزو (كثافة) متخلخلة أو فارغة ، ثم لا تتوغل فيها إلا بمقدار ما تلقاه من تخلخل أو فراغ .

كذلك فى مجال التسلل الفكري بين الحضارات المتجاورة بعامة ، ولا شك أن تسلل الفكر الأجنبي إلى الفكر العربي لم يكن الا من هذا القبيل .

٢٢ – نعم ، لقد تسلل الفكر اليوناني إلى الفكر العربي في ترجمات (المنطق) و (الخطابة) لأرسطو ، وفى ترجمات أخرى لمفكرين آخرين في مجالات شتى ، شانه في ذلك شأن ما تَّسلَّل إلى الفكر العربي من ثقافات شعوب أخر .

لكن من الحق الواجب أن نسأل أو نتساءل عن موقف كل مجال من مجالات الفكر العربي في استقبال هذا التسلل الطارىء الدخيل ؟

وعندئذ ، سوف نرى بوضوح وجلاء :

أن الفكر العربي الإسلامي هنالك ، لم يكن في تخلخل شائع ولا في فراغ مطلق في كل المجالات ، وإنما كانت هناك مجالات مكتظة بثقافة ثقيلة عالية التركيز ، كتلك المجالات التي تحتلها بكفاءة واقتدارٍ علوُم القرآن الكريم

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

والحديث ، وهكذا رأينا علماء هذه العلوم يستقبلون فكر أرسطو فيشيحون عنه اذ لم يجدوا فيه ما يكمل عندهم نقصا ، أو يضيف إلى ما عندهم نفعا ، وما نظن أحدا أن يتلمس أثرا واحدا ظاهرا ولاشاحبا للفكر الأرسطي في علوم القرآن أو تجميعات ومصطلحات المحدثين في شتى علوم الحديث .

٢٣ – بينما كانت هناك مجالات أخرى لم تعرفها الثقافة الإسلامية الأصيلة من قبل ، ونعني بها : مجالات الجدل الكلامي ، والبحث الميتافيزيقي في (عالم الغيب) الذي كان المسلمون بحكم القرآن والسنة يرفضون الخوض فيه – وفي هذه المجالات الخاوية تمدَّد الفكر الأرسطي ورتع بمقدار ما صادفه في تلك المجالات من فراغ .

وهكذا رأينا كتابات العرب أصولا وشروحا وحواشي ، في فنون الجدل أو في الغيبيات أو في علم (المنطق) تبدأ بالمنطق الأرسطي لتعود إليه وتدور حوله ، بينما رأينا المحافظين من المسلمين يدمغون هذا كله وينفرون منه نفارا شديدا ..

٢٤ – وفيما بين هذه وتلك ، كانت هناك مجالات فكرية قد استقام قيامها واستوى عودها على أساس راسخ وكيان ناضج سليم ، ثم أقبل عليها وأحاط بها ذلك التسلل الفكري الأجنبي بعامة ، والمنطق الأرسطي بخاصة ، فلم يمتنع علماؤها المتأخرون عما امتنع عنه أسلافهم المتقدمون ، ولم يجدوا غضاضة في أن يصطنعوا بعض ما استساغوه من هذا المنطق الأرسطي ، ومالهم ألا يفعلوا وهم لن يمسوا جواهر علومهم بزيادة ولا بنقصان ، وإنما هو اصطناع محدود بحدود (الصناعة) العلمية إن صح هذا التعبير ، من صياغة لفظية ، وتقسيمات شكلية ، وافتراضات نظرية ، ومنازعات جدلية إلى غير ذلك من هذا القبيل .

٢٥ – حدث هذا في كتابات الفقهاء المتأخرين بينما لا نرى له أثرا فى المراجع الأولى لأئمة المذاهب ، كما وقع أيضا عند المتأخرين من المتصوفين ، وكما نراه بوضوح وجلاء عند علماء (صناعة) النحو .

وانظر حيث شئت فيما تشاء من كتب النحو العربي منذ استفاض التأليف فيه وبعد التراث السلفي الأول ، سواء في ذلك المتون (الأصول) أو (الشروح) أو (الحواشي) أو (التذييلات على الحواشي) .. فلن تجد فيها جميعا ما يضيف جديدا إلى قاعدة قديمة أو ينقض منها شيئا ، فضلا أن يضيف أو يحذف قاعدة واحدة مما استقر منذ البداية في النحو العربي القديم .

إنما تتحدث الأصول ، وتمضي الشروح ، وتسهب الحواشي ، وتفيض التذييلات .. فيما أسلفنا ذكره من (صناعة) النحو ليس إلّا !

فى ثنايا هذه الكتابات (الصناعية) نرى التأثير المنطقي الأرسطى سافرا

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

ظاهرا في جلاء واضح مكشوف .

ولن يتسع هذا المقال للطواف الشامل المحيط بما نراه من بصمات هذا التأثير السافر للمنطق الأرسطي في (صناعة) النحو العربي ، فبحسبنا ها هنا أن نسوق بعض الشواهد والأمثال .

٢٦ – ولعل أول ما يطالعك في كتابات النحويين بعامة : اهتمامهم الحافل بذكر (الحدّ) و (الحدود) في التعريف لكل قاعدة ، بل حرصهم على التفرقة بين (الحدّ التام) ، وهو (الحد الجامع المانع) ، أى الشامل لكل الجزئيات التى تندرج في بابه مع استبعاد كل ما ليس كذلك ، وبين (الحد الناقص) ، وهو ما لم يكن (جامعا مانعا) ولا يخفى أن استعمال كلمة (الحد) أو (الحدود) بهذا المعنى التعريفي هو استعمال منطقي بحت ، بقدر ما هو غريب دخيل على العرف اللغوي السلفي الأصيل .

٢٧ – صحيح أن كلمة (الحدود) قد وردت من قبل في أربعة عشر موضعا من القرآن الكريم ، ولكنها تتجه بجميعها إلى معنى واحد حاسم الدلالة واضح البيان وهو معنى تشريعي ديني بحت ، فكلمة (الحدود) في القرآن الكريم إنما تعني : ماالله من أوامر ونواه لا يجوز للمسلم الصالح أن يتعداها : (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)[٢]
(وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)[٣]

٢٨ – كذلك وردت كلمة (الحد) و (الحدود) في كثير من صحاح الأحاديث ولكن بمعنى العقوبة المقدرة في الشرع للتعدي على أمر من أوامر الله وارتكاب نواهيه ، وذلك في بعض الجرائم بخاصة ، وهكذا ارتبط الاستعمال النبوي بالأصل القرآني ولكن بطريق المجاز اللغوي – وهو إطلاق اللفظ على غير ما وضع له لعلاقة من علاقات المجاز وهي هنا علاقة النتيجة وهي العقوبة بسببها وهو التعدي على أوامر الله .[٤]

ثم استقر العرف اللغوي بين العرب المسلمين على استعمال (الحد) و (الحدود) بالمعنيين معا : الأصلي القرآني بمعنى (أوامر الله) والمجازى النبوي بمعنى العقوبة المقدرة في الشرع نتيجة للتعدي على شيء من حدود الله .

إلى أن جاء التسلل المنطقي الأرسطي فأولع العلماء من المتأخرين بخاصة فى (صناعة) النحو باستعمال كلمتي (الحد والحدود) ولكن بذلك المفهوم المنطقي التعريفي كما ذكرنا .

٢٩ – فإذا دخلنا إلى الأسلوب الصناعي في صياغة هذه (الحدود) وجدنا عبارات

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

مترجمة حرفيا عن المنطق الشكلي الأرسطي ، وكلما تراكمت حول المتون (الأصول) شروح وحواش وتذييلات ، فاض هذا الركام بمزيد من هذه العبارات (الأرسطية) وازداد تأثير المنطق الشكلي وضوحا وجلاء .

٣٠ – ونكتفى بعرض موجز لهذا المثال من تأليف النحوي الذكي عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام . المتوفى ٧٦١هـ . فى مستهل كتابه (شرح قطر الندى) وهو – كما يسجل في عنوانه – شرح لوجيز مرهق الاختصار قد سبق للمؤلف نفسه أن وضعه من قبل !

ونبدأ بأول ما استهل به المؤلف كتابه إذ يقول :

(**المتن**) : (الكلمة قول مفرد)

ثم يشرح هذا (الحد) الموجز إلى أن يقول في الشرح :

(**الشرح**) : « **فإن قلت** : (والخطاب للقارىء) **فلم لا اشترطت في الكلمة الوضع**(٥) ، **كما اشترط من قال** : **الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد ؟**

قلت : إنما احتاجوا إلى ذلك لأخذهم اللفظ جنسا للكلمة ، واللفظ ينقسم الى موضوع **ومهمل** ، فاحتاجوا إلى الاحتراز عن المهمل بذكر الوضع ، ولما أخذت القول **جنسا** للكلمة – وهو **خاص** بالموضوع – أغنى ذلك عن اشتراط الوضع .

فإن قلت : فلم عدلت عن اللفظ إلى القول ؟

قلت : لأن اللفظ **جنس بعيد** ، **لانطلاقه على المهمل والمستعمل ، كما ذكرنا ، والقول جنس** قريب ، لا ختصاصه بالمستعمل ، **واستعمال الأجناس البعيدة فى الحدود** معيب عند أهل النظر »

(**المتن**) : (وهي اسم ، وفعل ، وحرف .)

(**الشرح**) : « لما ذكرت **حد** الكلمة ، بينت أنها **جنس** تحته ثلاثة **أنواع** ...

ولعل من الخير أن نقنع بهذه الفقرات وهى تضج بمصطلحات المنطق الأرسطي في غنى عن كل تعليق .

٣١ – وبعد ، ففى رأينا :

أن أخطر الغَمَرات التى تردَّى فيها أولئك المتأخرون من النحويين بمنزلق المنطق الأرسطى الشكلي ، هي أنهم ذهبوا إلى الإسراف في القياس وفي التقسيم بدلا من منهج الالتزام السلفي بالواقع اللغوي كما ورد .

٣٢ – فمن الإسراف فى القياس ما أفقد بعضهم صوابه حين تجرأ على أفصح اللهجات العربية وهى : لهجة قريش ، « وإنما نزل القرآن بها » كما هتف عثمان بن عفان

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

رضى الله عنه فى وجه الكاتبين للمصحف أن يلتزموا هذه اللهجة .

لكن هذا البعض من النحويين المتأخرين المبهورين بالإسراف في القياس يسمع الآية القرآنية الكريمة بلهجة قريش : (ما هذا بشرا) فيقول : إن **القياس** : (ما هذا بشر) لأن (ما) لا تختص بالدخول على الأسماء مثل (ليس) فالقياس أن لا تعمل (ما) عملها .. !

٣٣ – بل إن من الإسراف في القياس ما أوغل إلى (الإسراف في الأوهام) .. ونعني به : اختلاف فرض وهمي بحت ، ثم الاندفاع بهذا الفرض الوهمي لتعميمه بالقياس قهرا وتعسفا على النصوص العليا فى التراث اللغوي بعامة ..

فبما سبق من افتراض وهمي بحت بادّعاء أن كلمة (إن) الشرطية لا يجوز لها أن تدخل على الإسماء ، يندفع التعميم القياسي بهذا الافتراض الوهمي ، برغم أنها وردت كذلك فعلا فى نصوص القرآن الكريم نفسه .. كما استقرت على ذلك أيضا لغة العرب .. حتى إذا اصطدم هذا الافتراض الوهمي بالنص القرآني : (وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه)[٦] سارع التعميم القياسي لذلك الافتراض الوهمي إلى إختلاق فعل (مقدر) لا وجود له وتقديره :

وإن **استجارك** أحد من المشركين استجارك .. ومثل ذلك ما يقال حول كلمة (لو) فى النص القرآني : (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي[٧]
فيقال فى التقدير التحكمي الوهمي :
لو تملكون أنتم خزائن رحمة ربي ...

وهكذا تصاعد التقدير الوهمي الى ما يشبه الهزل ويثير الضحك !

٣٤ – أما عن الإسراف المنطقي فى تعميم التقسيم ، فنكتفى بهذا المثال الطريف – حين خيل الوهم والغرور لهؤلاء المتأخرين فى (صناعة) النحو أنهم أعلم بقواعد النحو للغة العربية من أصحاب اللغة الأولين أنفسهم ..

٣٥ – ففى شرح النحوي المتأخر : على بن محمد الأشموني على المنظومة « الألفية » لابن مالك ، يقول الشارح فى (باب أسماء الإشارة) وهو يقسم هذه الأسماء : « على حال المخاطب من كونه مذكرا أو مؤنثا ، مفردا أو مثنى أو مجموعا ، فهذه ستة أحوال ، **تضرب فى** أحوال المشار إليه وهى ستة كما تقدم ، فذلك ستة وثلاثون ، يجمعها هذان الجدولان .. » !؟

ثم رسم جدولين وأفرغ فيهما هذه الأحوال الستة والثلاثين لأسماء الإشارة .. !

٣٦ – **لكن محمد بن على الصبان ، لا يقنع بهذا ، وإنما يكتب في حاشيته على شرح**

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

الآشموني السابق ما نصه :

« واعلم أنك إذا ضربت الستة والثلاثين فى مرتبتي القُرب والبعد كان الحاصل اثنين وسبعين ، وعلى اعتبار التوسط يكون المجموع مائة وثمانية ، **المتعذر منها ثلاثون** .. »

ثم يقول :

« وهذا جدول كافل بجميع ذلك ، والصفر الموضوع في الأسطر الستة علامة على أنه ليس **للاسم علامة تدل على المخاطب بالإشارة ، وذلك في جميع صور القريب** .. »

أفلا ترجع بنا هذه الجداول فور النظرة الأولى إليها – وفيها (الإيجابي) وفيها (الصفر) السلبي – الى جداول (الأشكال) فى المنطق الأرسطي الشكلي ، حيث تتوزع العبارتان المأثورتان : (منتج) و (عقيم) ؟

٣٧ – وختاماً فلئن كان الشاعر البحترى قد أعلن ثورة الشعراء على تسلل المنطق الأرسطى إلى (قواعد البلاغة والنقد) فى الشعر العربى حتى أرهقته وأرهقت الشعراء قسرًا وعسراً ، فقال كلماته المشهورة :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يُغني عن صدقه كَذِبُه
ولم يكن ذو القروح[٨] يلـــــــــهج بالمنطق مانوعه وما سببه

فكذلك هبت فى تاريخ (صناعة) التقعيد والنقد فى النحو العربي ثورة اثلة ، رفع لواءها الناقد الأندلسي (ابن مضاء) فى صرخته المشهورة تحت عنوان : (الرد على النحاة) ثم رددتها فى العصر الحديث صيحة أخرى للنحوي العميد : ابراهيم مصطفى فى كتابه القيم : (إحياء النحو) .

لكن التسلل المنطقي الأرسطي لا يزال يُحكم قبضته على الكتابات في صناعة النحو ، ونخشى أن تستمر إلى مستقبل غير قصير . !

احمد عنيم
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

هوامش البحث

١ – بأيدينا ولله الحمد نسخة مصورة عن أصل هذا الكتاب فى المكتبة القومية بباريس ، وفى العزم إذا شاء الله وانفسح الأجل أن نقوم بنشرها قريبا .

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms

٢ – **سورة (البقرة)** ورقمها فى المصحف ٢ والنص من الآية ٢٢٩ .
٣ – **سورة (الطلاق)** ورقمها فى المصحف ٦٥ والنص من الآية الأولى .
٤ – وإذا رجعنا إلى المعاجم اللغوية فى تسجيلها لهذه الكلمة من أفواه العرب وجدناهم يستعملون كلمة (الحد) بمعنى المنع والصد . راجع هذه المادة فى (أساس البلاغة) للزمخشري .
٥ – أى أن يكون أصحاب اللغة قد وضعوها قصدا لمعنى معين .
٦ – **من سورة (التوبة)** ورقمها فى المصحف ٧ والآية رقم ٦ .
٧ – **من سورة (الإسراء)** ورقمها فى المصحف ١٧ والآية رقم ١٠٠ .
٨ – هو امرؤ القيس .

This content downloaded from 131.252.96.28 on Thu, 17 Nov 2016 05:20:40 UTC
All use subject to http://about.jstor.org/terms